# باب أدب الدين

اعلم أن الله سبحانه وتعالى انما كلف الخلق متعبداته وألزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم لأن نفع ماسوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفعي الدنيا والآخرة كان أعظم نعمة وأكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته وألزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما أحله وحرمه وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع أمر ا بالطاعة ونهيا عن معصية ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل كتابه من قصص الانبياء السالفة وأخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدى ثم جعل الى رسوله صلى الله

عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعالى «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون» ثم جعل الى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه وأشار الى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد به فيمتاز وا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» وقال الله تعالى «وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم» فصار الكتاب أصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء ايضاحا وكشفا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال القرآن أصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والامة المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده أن أقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد أعده لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصي . قال الله تعالى «لا يكلف الله نفسا الا وسعها» وقال « وما جعل عليكم في الدين من حرج» . وجعل ما كلفهم به ثلاثة أقسام قسما أمرهم باعتقاده وقسما أمرهم بفعله وقسما أمرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف أبعث على قبوله وأعون على فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين قسما إثباتا وقسما نفيا . فأما الاثبات فاثبات توحيده وصفاته واثبات بعثته رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاءه وأما النفي فنفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع وهذان القسمان أول ما كلفه العاقل . وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام

قسما على أبدانهم كالصلاة والصيام وقسما في أموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على أبدانهم وفي أموالهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم أداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم . وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام قسما لاحياء نفوسهم وصلاح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث وشرب الخمور المؤدية الى فساد العقل وزواله وقسما لائتلافهم واصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضي الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا وتفضله فيما كفانا عنه كتفضله فيما أمرنا به فهل يجد العاقل في رويته مساغا أن يقصر فيما أمر به وشوقه عليه أو يروى فسحة في ارتكاب ما نهى عنه وهو تفضل عليه وهل يكون من أنعم عليه بنعمة فأهملها مع شدة فاقته اليها الا مذموما في العقل مع ما جاء من وعيد الشرع ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده أن جعل لهم من جنس كل فريضة نفلا وجعل لهم من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه . ومن لطيف حكمته أن جعل لكل عبادة حالين حال كمال وحال جواز رفقا منه بخلقه لما سبق في علمه أن فيهم العجل المبادر والبطيء المتثاقل ومن لا صبر له على أداء الاكمل ليكون ما أخل به من هيئات عبادته غير قادح في فرض ولا مانع من أجر فكان ذلك من نعمه علينا وحسن نظره لنا فكان أول ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الابدان وقد قدمها على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال أشح وعما يتعلق بالابدان أسمح وذلك الصلاة والصيام فقدم

الصلاة على الصيام لان الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «اذا قام أحدكم الى صلاته فانما يناجي ربه فلينظر بم يناجيه» . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان كلما دخل عليه وقت الصلاة اصفر مرة واحمر أخرى فقيل له في ذلك فقال أتتني الامانة التي عرضت على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها ولا أدري أسيء فيها أم أحسن ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه ثم علقها بأوقات راتبة وأزمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها وتتابع أوقاتها سببا لاستدامة الخضوع له والابتهال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه واذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها على الكمال والتقصير فيها عن حال الجواز وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم «الصلاة مكيال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله في المطففين» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من هانت عليه صلاته كان على الله عز وجل أهون» . وأنشدت لبعض الفصحاء في ذلك

أقبل على صلواتك الخمس * كم مصبح وعساه لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة * تمحو ذنوب صحيفة الامس
فليفعلن بوجهك الغض البلى * فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكاة الاموال لتعلق الصيام بالابدان

وكان فى ايجابه حث على رحمة الفقراء واطعامهم وسد جوعاتهم لما عانوه من شدة المجاعة فى صومهم وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام لم تجوع وأنت على خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع ثم لما فى الصوم من قهر النفس واذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها واشعار النفس ماهى عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشئ ذليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمه إلهين من دونه فقال «ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام» فجعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما عن أن يكونا إلهين . وقد وصف الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قصصه نقص الانسان بالطعام وغيره فقال مسكين ابن آدم محتوم الاجل مكتوم الامل مستور العمل يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير جوعه صريع شبعه تؤذيه البقه وتنتنه العرقه وتقتله الشرقه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فانظر الى لطفه بنا فيما أوجبه من الصيام علينا كيف أيقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة ونفع النفوس به ولم تكن لولاه منتفعة ولا نافعة

ثم فرض زكاة الاموال وقدمها على فرض الحج لان فى الحج مع انفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة أسرع اجابة منها الى الحج فكان فى ايجابها مواساة للفقراء ومعونة لذوى الحاجات تكفهم عن البغضاء وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل لان الآمل وصول والراجى هائب واذا زال الامل وانقطع الرجاء واشتدت الحاجة وقعت البغضاء واشتد الحسد فحدث التقاطع بين أرباب الاموال والفقراء ووقعت العداوة بين ذوى

الحاجات والاغنياء حتى تفضى الى التغالب على الاموال والتغرير بالنفوس هذا مع ما فى أداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لان السماحة تبعث على أداء الحقوق والشح يصد عنها وما يبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمدا وما صدّ عنها فأخلق به ذمّا . وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «شر ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع» . فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته وأخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفائها أعظم مما استوجبه بابدائها

ثم فرض الحج فكان آخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا فى مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان فى ايجابه تذكير اليوم الحشر بمفارقة المال والاهل وخضوع العزيز والذليل فى الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصى فى الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع أهل المعاصى عما اجترحوه وندم المذنبين على ما أسلفوه فقل من حج الا وأحدث توبة من ذنب واقلاعا من معصية ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم «من علامة الحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها» وهذا صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه أنبأ عن صحة توبته وصحة التوبة تقتضى قبول حجته ثم نبه بما يعانى فيه من مشاق السفر المؤدى اليه على موضع النعمة برفاهة الاقامة وأنسة الاوطان ليحنو على من سلب هذه النعمة من أبناء السبيل ثم أعلم بمشاهدة حرمه الذى أنشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التى أعز الله بها أهل طاعته

وأذل بنصر نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل له زعماء المتكبرين أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوى بعد الضعف البين حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر أيها الملك الله الشكر ووفقك التقوى أنعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى فطنتك وأحلتك على بصيرتك بعد أن كنت لك زائدا صدوقا وناصحا شفيقا هل تحسن نهوضا بشكره اذا فعلت ما أمرك وتقبلت ما كلفك كلا انه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر في المؤتنف . وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما نعم الله أكثر من أن تشترى الا ما أعان عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر الا ما عفا عنه . وأنشدت لمنصور بن اسماعيل الفقيه المصري رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة * موجبة لشكره
فكيف شكري بره * وشكره من بره

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما أمرك أو فرطت فيما كلفك ونفعه أعود عليك لو فعلته هل تكون اسوابغ نعمه الا كفورا وببداية العقول الا مزجورا وقد قال الله تعالى « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » . قال مجاهد أي يعرفون ما عدد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم انهم ورثوها عن آبائهم أو اكتسبوها بأفعالهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يقول الله يا ابن آدم ما أنصفتني أتحبب اليك بالنعم وتتمقت الي بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الي صاعد كم من ملك كريم يصعد الي منك بعمل قبيح » . وقال بعض صلحاء السلف قد أصبح بنا

من نعم الله تعالى مالا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا ندرى أيهما نشكر أجميل ما ينشر أم قبيح ما يستر فحق على من عرف موقع النعمة أن يقبلها ممتثلا لما كلف منها وقبولها يكون بأدائها ثم بشكر الله تعالى على ما أنعم به من اسدائها فان بنا من الحاجة الى نعمه أكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن أدينا حق النعمة فى التكليف تفضل باسداء النعمة من غير جهة التكليف فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد أوتى حفظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد على الاطلاق وان قصرنا فى أداء ما كلفنا من شكره قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه فنفرت النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له فى الحياة حظ ولا فى الموت راحة وهذا هو الشقى بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم . وقد قال الله تعالى «ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به» . وروى الاعمش عن مسلم قال قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه يا رسول الله ما أشد هذه الآية من يعمل سوءا يجز به فقال يا أبا بكر ان المصيبة فى الدنيا جزاء واختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال بعضهم أحد العذابين الفضيحة فى الدنيا والثانى عذاب القبر . وقال عبد الرحمن بن يزيد أحد العذابين مصائبهم فى الدنيا فى أموالهم وأولادهم والثانى عذاب الآخرة فى النار وليس وان نال أهل المعاصى لذة من عيش أو أدركوا أمنية من الدنيا كانت عليهم نعمه بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمه . وروى ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اذا رأيت الله تعالى يعطى العباد ما يشاؤن على معاصيهم إياه فانما ذلك استدراج

منه لهم ثم تلا «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون».

فاما المحرمات التي يمنع الشرع منها واستقر التكليف عقلا أو شرعا بالنهي عنها فتنقسم قسمين . منها ما تكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله عنها لقوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر . أحدهما حد عاجل يرتدع به الجريء والثاني وعيد آجل يزدجر به التقي ومنها ما تكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كاكل الخبائث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله في الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد لان النفوس مسعدة في الزجر عنها والشهوات مصروفة عنها وعن ركوب المحظور منها . ثم أكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فأوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون الامر بالمعروف تأكيدا لأوامره والنهي عن المنكر تأييدا لزواجره لان النفوس الأشرة قد ألهتها الصبوة عن اتباع الاوامر وأذهلتها الشهوات عن تذكار الزواجر فكان انكار المجانسين أزجرها وتوبيخ المخالطين أبلغ فيها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما أقر قوم المنكرين أظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر» . واذا كان ذلك فلا يخلو حال فاعلي المنكر من أمرين أحدهما أن يكونوا آحادا متفرقين وأفرادا متبددين لم يتحزبوا فيه ولم يتظاهروا عليه وهم رعية مقهورون وأفذاذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه وسمعه من قائليه وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكريه هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع

فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لانه لما وجب بالعقل أن يمتنع من القبيح وجب أيضا بالعقل أن يمنع غيره منه لان ذلك أدعى الى مجانبته وأبلغ فى مفارقته . وقد روى عبد الله بن المبارك رحمه الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فأخذ كل واحد منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا ما تصنع فقال هو مكانى أصنع فيه ما شئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهلكوا . وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لان العقل لو أوجب النهى عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار أهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفى ورود الشرع بذلك دليل على ان العقل غير موجب لانكاره فاما اذا كان فى ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب انكاره بالعقل على القولين معا فأما ان لحق المنكر مضرة من انكاره ولم تلحقه من كفه واقراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع أما العقل فلانه يمنع من اجتلاب المضار التى لا يواز يها نفع وأما الشرع فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك وذلك أضعف الايمان » فان أراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن انكار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله ولا اظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشى بغالب الظن تلفا أو ضررا ولم يخش منه النكير أيضا وان كان فى اظهار النكير اعزاز دين الله تعالى واظهار كلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف وان لم يجب عليه اذا كان الغرض قد

يحصل له بالنكير وان انتصر أو قتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم « ان من أفضل الاعمال كلمة حق تقال عند سلطان جائر » فاما اذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل أن يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهي اغراء بفعل المنكر ولجاجا في الاكثار منه قبح في العقل انكاره . والحال الثانية أن يكون فعل المنكر من جماعة قد تظافرت عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه فقد اختلف الناس في وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار لا يجب انكاره والاولى بالانسان أن يكون كافا مسكا وملازما لبيته وادعا غير منكر ولا مستفز وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض لازالته الا أن يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكونوا حينئذ أعوانه وقالت طائفة أخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره الا أن يجتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه من وجود أعوان يصلحون له فأما مع فقد الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح في العقل أن يتعرض له فهذا حكم ما أكد الله تعالى به أوامره وأيد به زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف من أحوال الآمرين به والناهين عنه . ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أربعة أحوال . فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعة ويكف عن ارتكاب المعاصي وهي أكمل أحوال أهل الدين وأفضل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين . روى محمد بن عبد الملك المدائني عن نافع

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الذنب لاينسى والبر لا يبلى والديان لايموت فكن كما شئت وكما تدين تدان» . وقد قيل كل يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا زرع يومك حصاد غدك . ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصى وهى أخبث أحوال المكلفين وشر صفات المتعبدين فهذا يستحق عذاب اللاهى عن فعل ما أمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمى من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمى من المعاصى مخافة النار فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد أفنيته بالحمى * دهرا من البارد والحار
وكان أولى بك أن تحتمى * من المعاصى حذر النار

وقال ابن ضبارة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل لاغنى لكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لاصبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضى الله عنه رضى الله عنك فقال كيف يرضى عنى ولم أرضه . ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب المجترئ لانه تورط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير فى فعل الطاعة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «أقلعوا عن المعاصى قبل أن يأخذ كم الله فيدعكم هتا بتا» (الهت الكسر والبت القطع) ولذلك قال بعض العلماء أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه وقال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمى من الاطعمة لمضراتها كيف لا يحتمى من الذنوب لمعراتها . وقال

بعض الصلحاء أهل الذنوب مرضى القلوب . وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله ما أعجب الاشياء فقال قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه . وقال بعض الألباء يدل بالطاعة العاصى وينسى عظيم المعاصى . وقال رجل لابن عباس رضى الله عنهما أيما أحب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل أو رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضى الله عنهما لا أعدل بالسلامة شيأ . وقيل لبعض الزهاد ما تقول فى صلاة الليل فقال خف الله بالنهار ونم بالليل . وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم أهلككم النوم فقال بل أهلكتكم اليقظة . وقيل لابى هريرة رضى الله عنه ما التقوى فقال أجزت فى أرض فيها شوك فقال نعم فقال كيف كنت تصنع فقال كنت أتوقى قال فتوق الخطايا . وقال عبد الله ابن المبارك

أيضمن لى فتى تركى المعاصى * وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم فاستراحوا * ولم يتجرعوا غصص المعاصى

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب اللاهى عن دينه المتذر بقلة يقينه . وروى أبو ادريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كانت صحف موسى على نبينا وعليه السلام كلها عبرا عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم يتعب وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن اليها وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « اجتهدوا فى العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصى »

وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي تركٌ وهو أسهل وعمل الطاعات فعل وهو أثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا بغير عذر لانه تركٌ والتركُ لا يعجز المعذور عنه وانما أباح ترك الاعمال بالاعذار لان العمل قد يعجز المعذور عنه . وقال بكر بن عبد الله رحم الله امرأ كان قويا فأعمل قوته في طاعة الله تعالى أو كان ضعيفا فكف عن معصية الله تعالى . وقال عبد الاعلى بن عبد الله الشامي رحمه الله تعالى

العمر ينقص والذنوب تزيد * وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد * رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسئل عن سنيه فيشتهي * تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم أن لاعمال الطاعات ومجانبة المعاصي آفتين . احداهما تكسب الوزر . والاخرى توهن الاجر . فأما المكسبة للوزر فاعجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لان الاعجاب به يفضي الى حالتين مذمومتين احداهما أن المعجب بعمله ممتنٌ به والممتن على الله تعالى جاحد لنعمه قال ابن عباس رضي الله عنهما أوحى الله تعالى الى نبي من أنبيائه أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت به الراحة وأما انقطاعك الي فهو عزٌ لك فهذان لك وبقيت أنا . والثانية أن المعجب بعمله مدل به والمدل بعمله مجترئ والمجترئ على الله عاص . وقال مُوَرِّق العجلي خير من العجب بالطاعة أن لا تأتي بطاعة . وقال بعض السلف ضاحكٌ معترف بذنبه خير من باكٍ مدل على ربه وباكٍ نادم على ذنبه خير من ضاحكٍ معترف بالهوى . وأما الموهنة للاجر فالثقة بما أسلف والركون الى ما قدم

لان الثقة تؤول الى أمرين . أحدهما يحدث اتكالا على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصر واتكل لم يرج أجرا ولم يؤد شكرا . والثانى أن الواثق آمن والآمن من الله تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه أوامره وسهلت عليه زواجره . وقال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى . وقال مؤرق العجلى لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب الى من أن أبيت قائما وأصبح ناعما . وقال الحكماء ما بينك وبين أن لا يكون فيك خيرا الا أن ترى أن فيك خيرا . وقيل لرابعة العدوية رحمها الله هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك قالت ان كان شئ نخوفى من أن يرد على عملى . وحكى أن بعض الزهاد وقف على جمع فنادى بأعلى صوته يامعشر الأغنياء لكم أقول استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة ويامعشر الفقراء لكم أقول أقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة . فينبغى أحسن الله اليك بالتوفيق أن لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير فى طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعدا ولا ما فات مستدركا وللفراغ زيغ أو ندم وللخلوة ميل أو أسف . وقال عمر بن الخطاب الراحة للرجال غفلة وللنساء غفلة وقال بزرجمهر ان يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة . وقال بعض الحكماء اياكم والخلوات فانها تفسد العقول وتعقد المحلول . وقال بعض البلغاء لا تمض يومك فى غير منفعة ولا تضع مالك فى غير صنيعة فالعمر أقصر من أن ينفد فى غير المنافع والمال أقل من أن يصرف فى غير الصنائع والعاقل أجل من أن يفنى أيامه فيما لا يعود عليه نفعه

وخيره وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه وأجره وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام البر ثلاثة المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه في غير ذكر فقد لغا ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لها

واعلم أن للانسان فيما كلف من عباداته ثلاث أحوال احداها أن يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية أن يقصر فيها والثالثة أن يزيد عليها فأما الحال الاولى فهي أن يأتي بها على حال الكمال من غير تقصير فيها ولا زيادة تطوع على راتبتها فهي أوسط الاحوال وأعدلها لانه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز وقد روى سعيد بن أبي سعيد رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « سددوا وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » وقال الشاعر

عليك بأوساط الأمور فانها * نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال احداها أن يكون لعذر أعجزه عنه أو مرض أضعفه عن أداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض الا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله » . والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغترارا بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد جعل الظن ذخرا والرجاء عدة فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا بأنه سيجده

فى المفاوز الجدبة فيفضى به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه . وحكى أن اسرائيل بن محمد القاضى قال لقيني مجنون كان فى الحربات فقال يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفر الى الله ولا تفر منه . وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله ألا تبكى فقال تلك حلية الآمنين . وحكى أن أبا حازم الاعرج أخبر سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان أين رحمة الله قال قريب من المحسنين . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أما بعد فان الانسان ليسره درك مالم يكن ليفوته ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه فلا تكن بما نلته من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل ويؤخر التوبة لطول الأمل فكأن قد والسلام . وقال محمود الوراق رحمه الله

أخاف على المحسن المتقى * وأرجو لذى الهفوات المسى
فذاك خوفى على محسن * فكيف على الظالم المعتدى
على أن ذا الزيغ قد يستفيق * ويستأنف الزيغ قلب التقى

والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفى ما أخل به من بعد فيبدأ بالسيئة فى التقصير قبل الحسنة فى الاستيفاء اغترارا بالأمل فى امهاله ورجاء لتلافى ما أسلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهى به الأمل الى غايه ولا يفضى به الى نهايه لان الأمل هو فى ثان حال كهو فى أول حال . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من يؤمل أن يعيش غدا فانه يؤمل أن يعيش أبدا

ولعمرى ان هذا صحيح لان لكل يوم غدا فاذن يفضى به الامل الى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصير الأمل خيبة والرجاء يأسا . وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أول صلاح هذه الامة بالزهد واليقين وفسادها بالبخل والامل » . وقال الحسن البصرى رحمه الله ما أطال عبد الامل الا أساء العمل . وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة ألك حاجة ببغداد قال ما أحب أن أبسط أملى الى أن تذهب الى بغداد وتجىء . وقال بعض الحكماء الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله . وقال بعض البلغاء الامل كالسراب غر من رآه وخاب من رجاه . وقال محمد بن يزدان دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد أقرأت ما فيها فقلت هى فى يد أمير المؤمنين فرمى بها الى فاذا فيها مكتوب

انك فى دارها مدة * يقبل فيها عمل العامل
أما ترى الموت محيطا بها * يقطع فيها أمل الآمل
تعجل بالذنب لما تشتهى * وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا بغتة * ماذا تفعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى هذا من أحكم شعر قرأته . وقال أبو حازم الاعرج نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت . وقال بعض البلغاء زائد الامهال رائد الاهمال . والحال الرابعة أن يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء وزهدا فى التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث بما بقى فهذا على ثلاثة أضرب (أحدها) أن يكون ما أخل به

وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر في العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترضاتها وأخل بمسنوناتها وهيآتها فهذا مسيء فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عقابا لان أداء الواجب يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من إكمال الثواب وقد قال بعض الحكماء من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال الشاعر

ويصون توبته ويترك غيرذلك لا يصونه
وأحق ماصان الفتى ورعى أمانته ودينه

والضرب الثاني أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته لكن لا يقدح تركه ما بقي فيما مضى كمن أكمل عبادات وأخل بغيرها فهذا أسوأ حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب . والضرب الثالث أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لاخلاله بما بقي فهذا أسوأ أحوال المقصرين وحاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف مالا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف مالا يفيد فصار من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم لعله لا يفطن لشانه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير من ماله ان وهى واختل . وانشدني بعض أهل العلم

أبنيّ ان من الرجال بهيمة * في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله * واذا يصاب بدينه لم يشعر

وأما الحال الثالثة وهو أن يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة أقسام . أحدها أن تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس فى الاخيار وهو ضدهم وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرائى بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبى زور يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوبى زور هو الذى يلبس ثياب الصلحاء فهو بريائه محروم الأجر مذموم الذكر لانه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا قال جميع أهل التأويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أى لا يرائى بعمله أحدا فجعل الرياء شركا لانه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودا به غير الله تعالى . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء . وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى أن العدل استواء السريرة والعلانية فى العمل لله تعالى والاحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان الصبر على أمره ونهيه وطاعة الله فى سره وجهره وايتاء ذى القربى صلة الأرحام وينهى عن الفحشاء يعنى الزنا والمنكر القبائح والبغى الكبر والظلم وليس يخرج الرياء بالاعمال من هذا التأويل أيضا لانه من جملة القبائح . وقد روى

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أشد الناس عذابا يوم القيامة من يرى أن فيه خيرا ولا خير فيه . وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه لا تعمل شيأ من الخير رياء ولا تتركه حياء وقال بعض العلماء كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء وقد يفضي الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكي أن طاهر بن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي منذ كم صرت الى العراق يا أبا عبد الله قال دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم فقال يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين . وحكي الاصمعي رحمه الله أن أعرابيا صلى فأطال والى جانبه قوم فقالوا ما أحسن صلاتك فقال وأنا مع ذلك صائم

صلى فأعجبني وصام فرابني * فخ القلوص عن المصلي الصائم

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما أدله على سخف عقل صاحبه وربما ساعد الناس مع ظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه كالذي حكي أن زاهدا نظر الى رجل في وجهه سجادة كبيرة واقفا على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا فقال انه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة التي يدفع بها صاحبها المذمة ولقد استحسن الناس من الأشعث بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض أهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال انه لم يخالطها رياء فتخلص من تنقيصهم بنفي الرياء عن نفسه ورفع التصنع في صلاته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به ومر أبو أمامة ببعض المساجد فاذا رجل يصلي وهو يبكي فقال له أنت أنت لو كان

هذا فى بيتك فلم يزدك منه حسنا لانه اتهمه بالرياء ولعله كان بريئا منه فكيف بمن صار الرياء أغلب صفاته وأشهر سماته مع أنه آثم فيما عمل وأثم من هبوب النسيم بما حمل ولذلك قال عبد الله بن المبارك أفضل الزهد اخفاء الزهد وربما أحس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراءاة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراءاة فكان ذلك أبلغ فى فضله وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظى عظنى فقال لا أرضى نفسى لك واعظا لأنى أجلس بين الغنى والفقير فأميل على الفقير وأوسع للغنى ولأن طاعة الله تعالى فى العمل لوجهه لا لغيره . وحكى أن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق فقال ههنا وأومأ بيده الى السماء

والقسم الثانى أن يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد تثمره مجالسة الأخيار الأفاضل وتحدثه مكاثرة الأتقياء الأماثل . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل . فاذا كاثرهم المجالس وطاولهم المؤانس أحب أن يقتدى بهم فى أفعالهم و يتأسى بهم فى أعمالهم ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ولا أن يكون فى الخير دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم فيصيرون سببا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول لولا الوئام لهلك الأنام أى لولا أن الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدى بهم فى الخير لهلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار مودة الأشرار وهذا صحيح لان للمصاحبة تأثيرا فى اكتساب الاخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح أهله * ويعديهم داء الفساد اذا فسد
يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه * ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

وأنشدنى بعض أهل الأدب لابى بكر الخوارزمى

لاتصحب الكسلان فى حالاته * كم صاح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

والقسم الثالث أن يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة فى الزلفة بها فهذا من نتائج النفس الزاكية ودواعى الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين وأعلى منازل العابدين وقد قيل الناس فى الخير أربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردئ ومن تركه حرمانا فهو شقى ثم لما يفعله من الزيادة حالتان . احداهما أن يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهى أفضل الحالتين وأعلى المنزلتين عليها انقرض أخيار السلف وتتبعهم فيها فضلاء الخلف . وقد روت عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أيها الناس افعلوا من الاعمال ما تطيقون فان الله لايمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الاعمال ماديم عليه والعرب تقول القصد والدوام وأنت السابق الجواد ولأن من كان صحيح الرغبة فى ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا فى طاعته .

وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا أعصى الله فيه فهو يوم عيد انظر الى هذا القول منه وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما أبلغه فى حب الطاعه وأحثه على بذل الاستطاعه . وخرج بعض الزهاد

في يوم عيد في هيئة رثة فقيل لم تخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة والناس متزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته . والحالة الثانية أن يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر أشبه لان الاستكثار من الزيادة إما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا لانه تطوع بزيادة أحدثت نقصا ونفل منع فرضا وإما أن يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي اذا قصيرة المدى قليلة اللبث والقليل العمل في طويل الزمان أفضل عند الله عز وجل من كثير العمل في قصير الزمان لأن المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا أو ساهيا والمقل في الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار . وقد روى أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان للاسلام شرّة وللشرة فترة فمن سدّد وقارب فارجوه ومن أشير اليه بالاصابع فلا تعدّوه فجعل للاسلام شرة وهي الايغار في الاكثار وجعل للشرة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيرا أو اخلالا ولا خير في واحد منهما . واعلم جعل الله العلم حاكما لك وعليك والحق قائدا لك واليك أن الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقه واذا فارقت ففجعات محرقه وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتأمن من فجعاتها فقد قيل المرء مقترض من عمره المنقرض مع أن العمر وان طال قصير والفراغ وان تم يسير وأنشدت لعلي بن محمد رحمه الله تعالى

اذا كملت للمرء ستون حجة * فلم يحظ من ستين الا بسدسها
ألم تر أن النصف بالليل حاصل * وتذهب أوقات المقيل بخمسها
فتأخذ أوقات الهموم بحصة * وأوقات أوجاع تميت بعسها
فحاصل ما يبقى له سدس عمره * اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضة نفسك لذلك تترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تتشعب وهى لتسهيل ما يليها سبب

(فالحالة الاولى) أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوقع الركون اليها ولا تكن آمنا لها . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أشرب قلبه حب الدنيا وكن اليها التاط منها بثلاث لا يفرغ عناه وأمل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام الدنيا لابليس مزرعة وأهلها له حراث . وقال على بن أبى طالب مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فأعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس أزاله عنها ايحاش . وقال بعض البلغاء الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلى من محنة فأعرض عنها قبل أن تعرض عنك واستبدل بها قبل أن تستبدل بك فان نعيمها يتنقل وأحوالها تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى . وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها . وقال بعض الشعراء

ألا انما الدنيا كأحلام نائم * وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالأمس لذة * فأفنيتها هل أنت الا كحالم
فكم غافل عنه وليس بغافل * وكم نائم عنه وليس بنائم

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها . وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليهما السلام يا موسى أعرض عن الدنيا وانبذها وراءك فانها ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد . وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال علي كرم الله وجهه يصف الدنيا أولها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها أمن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر اليها أعمته ومن نظر بها أبصرته . وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل إقبال الطالب وتدبر إدبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول خيرها يسير وعيشها قصير وإقبالها خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك . وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ان أرضيت احداهما أسخطت الاخرى . وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل . وقال بعض الحكماء الدنيا ما نقمة نازله وما نعمة زائله . وقيل في منشور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل . وقال الشاعر

تمتع من الايام ان كنت حازما * فانك منها بين ناه وآمر
اذا أبقت الدنيا على المرء دينه * فما فاته منها فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة * ولا وزن ذرّ من جناح لطائر
فما رضى الدنيا ثوابا لمؤمن * ولا رضى الدنيا جزاء لكافر

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل عنك فدعوا ما يزول وأتعبوا نفوسكم في العمل لما لا يزول .

وقال عيسى بن مريم عليه السلام لا تنازعوا أهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم أبقيتم . وقال علي ابن أبي طالب لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين فان أعطى منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهي ويأمرهم بما لا يأتي يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ويبغض الطالحين وهو منهم .

وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح .

وقال بعض العلماء ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع أسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعد أملك بقية يومك وكن كأنك ترى ثواب أعمالك . وقال بعض الحكماء الدنيا امامصيبة موجعه وامامنية مفجعه . وقال الشاعر

خلّ دنياك انها * يعقب الخير شرها
هي أم تعق من * نسلها من يبرّها
كل نفس فانها * تبتغي ما يسرّها
والمنايا تسوقها * والأماني تغرّها

فاذا استحلت الجنى * أعقب الحلو مرها
يستوى فى ضريحه * عبد أرض وحرها

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها بثلاث خلال . إحداهن أن تكفى اشفاق الحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة . والثانية أن تأمن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها فان اللاهى بها مغرور والمغرور فيها مذعور . والثالثة أن تستريح من تعب السعى لها ووصب الكد فيها فان من أحب شيأ طلبه ومن طلب شيأ كد له والمكدود فيها شقى ان ظفر ومحروم ان خاب . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاد بنفسه فمعتقها وموبقها نفسه فموثقها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون بها الا بعمل . وقال بعض البلغاء من نكد الدنيا أن لا تبقى على حاله ولا تخلو من استحاله تصلح جانبا بافساد جانب وتسر صاحبا بمساءة صاحب فالركون اليها خطر والثقة بها غرر . وقال بعض الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا يأتى على شئ الا غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضى . ولما بلغ مرزدك من الدنيا أفضل ما سمت اليه نفسه نبذها وقال هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم وملك لولا أنه هلك وغناء لولا أنه فناء وجسيم لولا أنه ذميم ومحمود لولا أنه مفقود وغنى لولا أنه منى وارتفاع لولا أنه اتضاع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لو وثق له بغد . وقال بعض الحكماء قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهد فيها كفت . وقال أبو العتاهية

هى الدار دار الأذى والقذى * ودار الفناء ودار الغـير
فلو نلتها بحـذافيرها * لمت ولم تقض منها الوطـر
أيا من يؤمل طول الخلود * وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب * فلا خير فى العيش بعد الكبر

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو الدجال فهو شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر . وحكى أن الله تعالى أوحى الى عيسى ابن مريم عليه السلام أن هب لى من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع فانى قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السلام أوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه . وقال بعض البلغاء زد من طول أملك فى قصير عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم المنام فمن عرفها ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرم التوفيق . وقال بعض الحكماء لا يؤمنك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك ولا دولة لك من ادالة منك . وقال آخر ما مضى من الدنيا كما لم يكن وما بقى منها كما قد مضى . وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال أيقنت أنى أخرج منها كارها فرأيت أن أخرج منها طائعا . وقيل لحرقة بنت النعمان مالك تبكين فقالت رأيت لأهلى غضارة ولم تمتلئ دار فرحا الا امتلأت ترحا . وقال ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها . وقال صاحب كليلة ودمنه طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات

نهارك يامغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والأسى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى * كما سر بالذات فى النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره غبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا أراك الله مكروها فقال كأنك دعوت على صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن يرى مكروها .

وقال أبو العتاهية

إن الزمان ولو يلي * ن لأهله لمخاشن
خطواته المتحركا * ت كأنهن سواكن

(والحال الثانية) من أحوال رياضتك لها أن تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها وأنالتك من غرائبها فتعلم أن العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردة بعد أن تبقى عليك ما احتقبت من أوزار وصولها اليك وخسران خروجها عنك . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث شبابه فيم أبلاه وعمره فيم أفناه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه . وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال فى المال ثلاث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال يضعه فى غير حقه قالوا فان وضعه فى حقه قال يشغله عن عبادة ربه . ودخل أبو حازم على بشر بن مروان فقال يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا فى حقه وما ليس عندك فلا تأخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين . وعيرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال من الغنى دهيتم . ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون

عليه فقال لو كانت الدنيا دار مقام لاتخذنا لها أثاثا . وقيل لبعض الزهاد ألا توصي قال بماذا أوصي والله مالنا شئ ولا لنا عند أحد شئ ولا لأحد عندنا شئ انظر إلى هذه الراحة كيف تعجلها والى السلامة كيف صار إليها ولذلك قيل الفقر ملك ليس فيه محاسبة . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام ألا تتزوج فقال انما نحب التكاثر في دار البقاء وقيل لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حمارا فقال أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادم حمار . وقيل لأبي حازم رضي الله عنه ما مالك قال شيئان الرضا عن الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين فقال كيف أكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى . وقال بعض الحكماء رب مغبوط بمسرة نهى داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه . وقال بعض الادباء الناس أشتات والكل جمع شتات . وقال بعض البلغاء الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد في الثراء ومن قوي دينه أيقن بالجزاء فلا تغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدة العمر قليله وصحة النفس مستحيله . وقال بعض الشعراء

رب مغروس يعاش به * عدمته عين مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه * أقرب الاشياء من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداهن نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مأفون والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة انتهاز الفرصة في مالك أن تضعه في حقه وأن تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا

فقد روى أن رجلا قال يارسول الله انى أكره الموت قال ألك مال قال نعم قال قدّم مالك فان قلب المؤمن عند ماله وقالت عائشة رضى الله عنها ذبحنا شاة فتصدّقنا بها فقلت يارسول الله ما بقى الا كتفها قال كلها بقى الا كتفها .
وحكى أن عبد الله بن عبيد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين ألف درهم فقيل له اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال أنا أجعل هذا المال ذخرا لى عند الله عزوجل وأجعل الله ذخرا لولدى وتصدّق بها وعوتب سهل بن عبد الله المروزى فى كثرة الصدقة فقال لو أن رجلا أراد أن ينتقل من دار الى دار أكان يبقى فى الاولى شيأ . وقال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم ما لنا نكره الموت قال لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران الى الخراب . وقيل لعبد الله بن عمر ترك زيد بن خارجة مائة ألف درهم فقال لكنها لا تتركه . وقال الحسن البصرى رحمه الله ما أنعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان بن داود عليه السلام فان الله تعالى قال له هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وقال أبو حازم ان عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد مازوى عنا . وقال بعض السلف قدموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم . وقال ابراهيم نعم القوم السؤال يدقون أبوابكم يقولون أتوجهون للآخرة شيأ . وقال سعيد بن المسيب مر بى صلة بن أشيم فما لكت أن نهضت اليه فقلت ياأبا الصهباء ادع لى فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذى لا تسكن النفس الا اليه ولا يعوّل فى الدين الا عليه ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوى بيده ثوبا فقال وددت أنى كنت غسالا لا أعيش الا بما أكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذى

جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى نحن عنده ما هم فيه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو أعطيت فأمضيت . وقال خالد بن صفوان بت ليالي أتمنى فكسبت البحر الأخضر والذهب الاحمر فاذا يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران وقال مؤرق العجلي يا ابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن وينقص عمرك وأنت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك . وقال أبو حازم انما بيننا وبين الملوك يوم واحد أما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وإياوهم من غد على وجل وانما هو اليوم فاعسى أن يكون . وقال بعض السلف تعزعن الشئ اذا منعته لقلة ما يحبك اذا أعطيته . وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة . وقال آخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها أهون من رفضها بعد ملابستها . وقال آخر ليكن طلبك الدنيا اضطرارا وتذكرك في الامور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال آخر الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود . وقال آخر من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالجزاء لم يؤثر على الحسنى . وقال آخر من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر . وقال أبو العتاهية

أرى الدنيا لمن هي في يديه * عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر * وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شئ فدعه * وخذ ما أنت محتاج اليه

وحكى الاصمعي رحمه الله قال دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده فلما أبصرني قال أرأيت ما كان مني قلت

نعم ياأمير المؤمنين فقال أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ثم رمى الى بالقرطاس فاذا فيه شعر أبي العتاهية رحمه الله تعالى

هل أنت معتبر ممن خربت * منه غداة قضى دساكره
وممن أذل الدهر مصرعه * فتبرأت منه عساكره
وممن خلت منه أسرّته * وتعطلت منه منابره
أين الملوك وأين عزهم * صاروا مصيرا أنت صائره
يامؤثر الدنيا للذته * والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدالك أن تنال من الدنيا فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمة الله عليه والله لكأني أخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات رحمه الله . ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضتك لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور أملك حتى لا يطيل لك الامل أجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في بعض خطبه أيها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان تبلى وان الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات . وقال مسعر كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله ولو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره . وقال رجل من الانصار للنبي صلى الله عليه وسلم من أكيس الناس قال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أيها الناس اتقوا الله الذي ان قلتم سمع وان أضمرتم علم وبادروا الموت الذي ان هربتم أدرككم وان أقمتم أخذكم . وقال العلاء بن المسيب ليس قبل الموت شئ الا والموت أشد منه وليس بعد الموت شئ الا والموت أيسر منه . وقال بعض الحكماء ان اللبيب بالماضي معتبرا وللآخر بالاول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع . وقال بعض الصلحاء ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فنائك الذي لا يبقى لبقائك الذي لا يفنى . وقال بعض العلماء أي عيش يطيب وليس للموت طبيب . وقال بعض البلغاء كل امرئ يجري من عمره الى غاية تنتهي اليها مدة أجله وتنطوي عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بأمسك وكف عن سيئاتك وزد في حسناتك قبل أن تستوفي مدة الأجل وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل . وقيل في منثور الحكم من لم يتعرض للنوائب تعرضت له . وقال أبو العتاهية

ما للفتى برلا تجيـ * ـب اذا دعاهن الكثيب
حفر مسقفة عليـ * ـهن الجنادل والكثيب
فيهن ولدان وأطـ * ـفال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن * نفسي بفرقته تطيب
غادرته في بعضهن * مجندلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما * عهدي برؤيته قريب

ووعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال أقلل من الدنيا تعش حرا وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس . وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى عظني وأوجز فقال اعلم أنك أول

خليفة يموت . وعزى أعرابى رجلا عن ابن صغير له فقال الحمد لله الذى نجاه مما ههنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر . وقال بعض السلف من عمل للآخرة أحرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة . وقال بعض الصلحاء استغنم تنفس الأجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك فى أجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود . وقال بعض الحكماء الطبيب معذور اذا لم يقدر على دفع المحذور . وقال بعض البلغاء اعمل عمل المرتحل فان حادى الموت يحدو لك ليوم ليس يعدو لك وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

غرّ جهولا أمله * يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه * لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر * قد غاب عنه أوّله
والمرء لا يحميه * فى القبر الا عمله

(وقال أبو العتاهية)

لا تامن الموت فى لحظ ولا نفس * وان تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة * لكل مدّرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال . احداها أن تكفى تسويف أمل يرديك وتسويل محال يؤذيك فان تسويف الأمل غرار وتسويل المحال ضرار . والثانية أن تستيقظ لعمل آخرتك وتغتنم بقية أجلك بخير عملك فان من قصر أمله واستقل أجله حسن عمله . والثالثة أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك

حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق أمرا توطأ لحلوله فهان عليه عند نزوله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي ذر رضي الله عنه عظني فقال ارض بالقوت وخف من الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرين إنا لحق ولئن كنا جاحدين إنا لهلكى . وقال الحسن البصري رحمه الله عليه نهارك ضيفك فأحسن اليه فانك ان أحسنت اليه ارتحل بحمدك وان أسأت اليه ارتحل بذمك وكذلك الملك . وقال الجاحظ في كتاب البيان وجدت مكتوبا في حجر يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك أسلمك أهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب .

ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كمقامي مع مخلوق أخافه . وقيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه لو أرسلت الى الطبيب فقال قد رآني قالوا فما قال لك قال قال اني فعال لما أريد . وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل ندعو لك بالطبيب قال قد أردت ذلك فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوي فهلكوا جميعا . وسئل أنوشروان متى يكون عيش الدنيا ألذ قال اذا كان الذي ينبغي أن يعمله في حياته معمولا . وقال بعض

الحكماء من ذكر المنيه نسى الأمنيه . وقال بعض الادباء عن الموت تسل وهو كريشة تسل . وقال بعض البلغاء الامل حجاب الاجل وأنشد بعض أهل الادب ماذكر أنه لعلى رضى الله عنه

فلو كنا اذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذا متنا بعثنا * ونسئل كلنا عن كل شئ

(وقال بعض الشعراء)

ألا إنما الدنيا مقيل لراكب * قضى وطرا من منزل ثم هجرا
فراح ولا يدرى علام قدومه * ألا كل ما قدمت يبقى موفرا

وروى سعيد بن مسعود رضى الله عنه أن أبا الدرداء رضى الله عنه قال يارسول الله أوصنى فقال صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى . وكتب الربيع ابن خيثم الى أخ له قدم جهازك وافرغ من زادك وكن وصى نفسك والسلام . وقال بعض السلف أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من أمنها ومر محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل هؤلاء زهاد فقال ما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها . وقال بعض الحكماء السعيد من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه والشقى من جمع لغيره وبخل على نفسه . وقال بعض البلغاء لا تبت من غير وصية وان كنت من جسمك فى صحه ومن عمرك فى فسحه فان الدهر خائن وكل ما هو كائن كائن . وقال بعض الشعراء

من كان يعلم أن الموت مدركه * والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه * يوم القيامة أو نار ستنضجه

فكل شئ سوى التقوى به سمج * وما أقام عليه منه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا * لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه أيها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المؤمن بين مخافتين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار . وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه أمس أجل واليوم عمل وغدا أمل . فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا

ليس فيما مضى ولا فى الذى لم * يأت من لذة لمستهلها
انما أنت طول عمرك ما عمرت فى الساعة التى أنت فيها
قنع النفس بالكفاف والا * طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد ما بالك تمشى على العصا وليست بكبير ولا مريض فقال انى أعلم أنى مسافر وانها دار قلعة وان العصا من آلة السفر . فأخذه بعض الشعراء فقال

حملت العصا الا الضعف أوجب حملها * على ولا أنى تحنيت من كبر
ولكننى ألزمت نفسى حملها * لأعلمها أنى مقيم على سفر

وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعه فاجعلها طاعه . وقال ذو القرنين عليه السلام رتعنا فى الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأرجعنا منها

كارهين . وقال عبد الحميد المرء أسير عمريسير . وقيل في بعض المواعظ عجبا لمن يخاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصي وعجبا لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل . وقال بعض الحكماء المسيء ميت وان كان في دار الحياة والمحسن حي وان كان في دار الاموات . وقال بعض السلف الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف . وقال آخر الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما . وقال آخر اعملوا لآخرتكم في هذه الايام التي تسير كأنها تطير . وقال آخر الموت قصارانك فخذ من دنياك لآخرتك . وقال آخر عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه قد غفر ولقد أمهل حتى كأنه قد أهمل . وقال آخر الايام صحائف أعمالكم فخلدوها أجمل أفعالكم . وقيل في منثور الحكم اقبل نصح المشيب وان عجل وقيل ما طلعت شمس الا وعظت بأمس . وقال محمد ابن بشير رحمه الله

مضى يومك الأدنى شهيدا معدلا * ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة * فثن باحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد * لعل غدا يأتي وأنت فقيد

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما رأيت مثل الجنة نام طالبها وما رأيت مثل النار نام هاربها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام ألا ان أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس طالبان يطلبان

فطالب يطلب الدنيا فارفضوها فى نحره فانه ربما أدرك الذى يطلبه منها فهلك بما أصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها . ودخل أبو الدرداء رضى الله عنه الشأم فقال يا أهل الشام اسمعوا قول أخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال مالى أراكم تبنون مالا تسكنون وتجمعون مالا تأكلون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فأصبح أملهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا وقال أبو حازم ان الدنيا غرت أقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجأهم الموت فخلفوا مالهم لمن لا يحمدهم وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغى أن ننظر للذى كرهناه منهم فنجتنبه والذى غبطناهم به فنستعمله . ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد . ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ما هذا قالوا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فأعطاه جبة فقال صدق الله ان سعيكم لشتى . وقال بعض الحكماء ما أنصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد فى الأجر والثواب . وقال آخر بطول الامل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب . وقال آخر ايالك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والاولى . وقال آخر قصر أملك فان العمر قصير وأحسن سيرتك فالبر يسير . وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله

نسير الى الآجال فى كل ساعة * وأيامنا تطوى وهن مراحل
ولم نر مثل الموت حقا كأنه * اذا ما خطته الامانى باطل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا * فكيف به والشيب فى الرأس شامل
ترحل عن الدنيا بزاد من التقى * فعمرك أيام تعد قلائل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت * واكدح لنفسك أيها الانسان
فكأن ما قد كان لم يك اذ مضى * وكأن ما هو كائن قد كان

ونظر سليمان بن عبد الملك يوما فى المرآة فقال أنا الملك الشاب فقالت له جارية له

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى * غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب * كان فى الناس غير أنك فانى

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى لمن أدب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قوله ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فان معالجة الاجساد الخاوية موعظة بليغة . وحفر الربيع بن خيثم فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قسوة جاء فاضطجع فى القبر فمكث فيه ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعتك فجدى فمكث كذلك ما شاء الله . وقال أبو محرز الطفاوى كفتك أيها المرء واعظ الامم السالفة . وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظات قال النظر الى محلة الاموات فأخذه أبو العتاهية فقال

وعظتك أجداث صمت * ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه * تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك فى الحيا * ة وأنت حى لم تمت
ياشامتا بمنيتى * ان المنية لم تفت
فلربما انقلب الشما * ت فحل بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوب قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة . وعلى آخر من أمل البقاء وقد رأى مصارع ناقهو مغرور . وقيل فى منثور الحكم ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه . وقال بعض الحكماء من لم يمت لم يفت . وقال بعض الصلحاء لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بما آله . وقال بعض العلماء من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول أحد . وقال بعض البلغاء ما نقصت ساعة من أمسك الا ببضعة من نفسك فأخذه أبو العتاهية فقال

ان مع الدهر فاعلمن غدا * فانظر بما ينقضى مجىء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته * الا وشئ يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكماء كان الملك أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال

كفا حزنا بدفنك ثم انى * نفضت تراب قبرك عن يدىا
وكانت فى حياتك لى عظات * وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال بعض الحكماء لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس ولم يتجالسوا فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال

أحسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح

فاذا المستور منا * بين ثوبيه فضوح

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم .

وكتب رجل الى أبي العتاهية رحمه الله

يا أبا اسحق اني * واثق منك بود
فأعني بأبي أنـ * ـت على عيبي برشدك

(فأجابه بقوله)

أطع الله يجهدك * راغبا أو دون جهدك
أعطه مولاك الذي تطـ * ـلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سره بنوه ساءته نفسه فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال

ابن ذي الابن كلما زاد منه * مشرع زاد في فناء أبيه
ما بقاء الاب المرجى عليه * بدبيب البلى شباب بنيه

وفي معناه ما حكي عن زر بن حبيش أنه قال وقد حضرته الوفاة وكان قد عاش مائة وعشرين سنة

اذا الرجال ولدت أولادها * وارتعشت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها * تلك زروع قد دنا حصادها

(وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس)

الموت باب وكل الناس داخله * فليت شعري بعد الباب ما الدار

(فأجابه بقوله)

الدار جنة عدن ان عملت بما * يرضى الاله وان فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما * فانظر لنفسك ماذا أنت مختار